غزة، أن تكون هناك

تقديم

عاطف أبو سيف

ليست الكتابة فعل استنطاق للحاضر، ولا هي تأمل في الماضي ولا ابحار في الدهشة المتولدة من المستقبل، بل هي لحظات وعي وارتداد وسط سكرات غياب حادة. إنها نوبة من نوبات الحياة فيما الموت بالكاد يترك متسعاً لقدميك الصغيرتين تتلمسان أفق الخطو.

وبذلك فإن الكتابة لا تسعي لأن تكون برهاناً على شيء، ولا تفسيراً لشيء آخر، كما لا تزعم أنها الاكثر تعبيراً والأصدق، ولا هي تمثل فاحشة القسوة المريعة امام مشاهد الموت، ولا هي صليب الرهبان ولا سوط الحسينيين يجلدون به آلامهم، بل هي تفصيل آخر، ربما صغير أيضاً، من تفاصيل لحظات الحرب المهولة، مجرد فعل آخر من تلك الأفعال القليلة التي تقوم بها وانت غير واثق من أنك ستعيش اللحظة القادمة.

لا ترف في الكتابة وسط الموت، ولا متعة في الحديث عن وقع خطواته في النواحي، كما أنك لا تجد في الجلوس في قلب العتمة ضائعاً تحاول أن تلتقط شيئاً مما يعنيه ما يحدث سياحة ذهنية، ولا في التفكير فيما يدور حولك عبادةً. لست وحدك لكنك وحيد رغم كل شيء. فالموت قد لا يتركك تكمل السطر الذي تخطه، كما أن صوت زناناته – رسله المزعجين في السماء- يقترح عليه بقوة أن لا محال فهو قادم قادم وأن الأمر مجرد وقت. وعليه فأنت تعرف أن ما تقوم به بلا فائدة تقريباً، وانك تلهو مثلما تلهو طفلتك "يافا" بلعبتها فزعة وهي تنظر صوب السماء عبر النافذة تلاحق عيناها الصاروخ الخاطف للحياة في الشارع الخلفي. تسأل نفسك لماذا عليك أن تتحمل كل هذا؟ لماذا عليك ان تفكر

به. الألم لا يعود ألماً حين ننساه، الأشياء مثل لمسة الريح لطراوة الفاكهة تحيا بالتفكير وبالمعايشة، فقط تجاهل آلامك قليلاً، تعمد نسيانها، ستكتشف انها لم تعد موجودة. خدّر مشاعرك واحاسيسك، وضع قلبك في صندوق صدئ وأقفل عليه بكل ما اوتيت من جحود ونكران.

لكنك الآن تفعل عكس ذلك. تفكر بعمق فيما يدور حولك، تمسك بالتفاصيل من قاع البئر، تخرجها من سبات الألم الغافي على حواف الروح وفي اتون القلب، إنك تصب بنزيناً على نار تأكل هشيم الحياة فيك وحولك، تشعل شيب الرأس الفتّي، وتخرج أسماك العمر من بحر الحياة. تحاصر أنامل يديك بحبر الكتابة، تقتل نسيانك الجميل بسكين نهم يتلذذ بقطع الشرايين والاوردة.

تحس بأنك فقط عبر هذا الألم تتأكد انك حي. كأنك تريد ان تعلن صراخك شارة نجاة من قاع البئر لعل السعُاة والادلاء يلتقون صوتك في عتمة الصحراء أو لعل زبد الموج يحمل ترانيم الصدى إلى شطآن وخلجان يكون للروح فيها علامات الحياة. انت تقول أنا لا أريد أن انسى، أريد أن اتذكر، أن احفر اخدوداً في قوقعة الواقع الصلبة تسير في حكايات هذا الألم، ان اعيد عزف الأغنية للمرة الألف حتى لا تضيع ترويدة الألم في فم الأطفال حين يولدون في بهجة النسيان. أريد أن أقول أنني مازلت حياً وسط الركام اتنفس ويدق قلبي، يعلو ويهبط صدري، وتتحسس أصابعي قسوة الأسمنت يحاصر جسدي، وتدفع قدمي أسياخ الحديد المدببة عن نعومة ساقي. مازلت تفصيلا صغيرا في تفاصيل الدمار التي خلفتها الصواريخ والبوارج والدبابات والطائرات، لكنني التفصيل الذي يلمع في وجه قاتلي، يعمي بصره ويدل عليه. مازلت في مكاني لم يخطفني الموت ولا حملني إلى ملكوت أجهل كنهه. انا الشاهد الحي على المجزرة، انا دليل الحياة التي كانت هنا قبل ان تلتهمها الزنانة، انا صديق من رحلوا وحامل حكاياتهم، وانا صدر البيت وعجزه، وانا اول القول وآخره، وانا حدوتة الرواية، وانا سطرها الأخير.

مازلت أرقد هناك في بحيرة الألم أسبح فيها حتى أصل شاطيء الأمن. لا سفينة لدي ولا قارب صيد حتى أعبر بسرعة الرصاصة من عالم إلى عالم. مازلت أقف وسط دهشة الموت أعلن أن الحياة أبقى وان النجاة بصعوبة عناقها ممكنة، وانني اليتيم الذي تلذذ رجال ونسوة الحي بتركه يعبط الألم، وانني المجروح الذي وقف وسط الخلق يتشعبط اطراف السرير لينجو، وانني تُركت في الجب وحيداً دون تنهيدة ألم منهم وهم يسيرون بلذة ورضا على طريق الخيانة.

****

لماذا الكتابة إذاً، خاصة وانت محاط بكل وسائل الموت، وانت كالإسفنجة مشبع ببحيرته، تقطر كل جوانبك شاهداً آخر علي وجوده. لماذا الكتابة إذا لم تكن متأكداً من أنك ستقرأ ما كتبت، وان الحياة ستعطيك فرصة تأمل تلك العبارات التي خرجت منك في كسرات الموت؟ لماذا لا تستمتع بما

تبقي لك من سويعات باللهو مع أطفالك او بتأمل برهة الحياة القصيرة التي تتوفر لديك الآن بدلاً من الجلوس أمام ورقة بيضاء في عتمة الليل والسير على أسطرها حافياً مكشوف الرأس والقلب والعقل، عارياً بألمك وحزنك وخوفك وضعفك.

لا إجابة على الإجابة.

فثمة أشياء نقوم بها لأن ثمة حاجة غير مدركة للقيام بها. وليس تفسير الشيء بالشيء الآخر برهاناً على وجوده، بل قد يكون نفياً له. لكن المؤكد انك حين تكتب وسط كل هذا القتل والانفجارات وصراخ الجيران وزعيق سيارات الإسعاف، ووسط طنين الزنانة وهدير البوارج وفحيح الدبابات، وسط كل هذا فإن ثمة فعلاً ما يشير إلى انك حي وانك قادرعلى المشاركة في إدارة القرص في الاتجاه المخالف، فكل شيء حولك يقود إلى الموت ويشير إليه ، إلا أنت فتشير إلى الحياة المتبقية وسط هذا التسونامي المستيقظ حولك كل دقيقة. أنت بذلك تقول كلمة واحدة لمن سيقرأ ما كتبت بان هناك في تلك المدينة التي ضربها الموت من أسفل ومن اعلى ومن البر ومن البحر، في تلك المدينة التي قست عليها ريح الصحراء وعض البحر نسيم قلبها، ثمة نفوس تتنفس وثمة أياد ترتعش وقلوب ترتجف وقهوة صباح لم تشرب وكؤوس شاي تنتظر الصباحات الطازجة، وشباك لم يرمها الصيادون في البحر، واغنية مازال يدندن بها في الطريق إلى المدرسة – يتواصل اللحن وهو لا يصل، وأن ثمة عاشقة مازلت تنتظر بحرقة وميض جوالها يبعث رسالة من شاب يمسك العمر في عنق الموت. وثمة صورة لرجل وزوجته مع أطفالهم الخمسة يبتهل إلى الموت كل ثانية أن لا يلمس أيا منهم وان تظل الصورة حياة وليست مجرد صورة.

****

هذه النصوص، في هذا الملف، تقول كل ذلك. تقول بان الحياة ممكنة ليس لأننا نمارسها ما استطعنا لها سبيلاً، وليس لأنها جميلة وممتعة، ولكن لأن الحياة مثل شعلة اللهب تدل عليه، وهي شامة الفتي تدركه امه وهي فنار الميناء. هذه النصوص على اختلافها وتنوعها في شارات جديدة من أرض الحياة هنا في غزة حيث يصارع الموت نفسه من أجل أن يقضي على كل شيء حتى على ملك الموت نفسه وعلى إسرافيل حتى لا يفيق الناس بعد ذلك. الموت يلتهم كل شيء حتى أسنانه الحادة يلتهمها، حتى عينيه الموغلة في زئير الرعب يلتهمها. لا يبقي على شيء إلا هذه النصوص.

هذه النصوص تسجل الحياة. الفن ليس محاكاة للواقع وفق الفهم الأرسطى، هنا يصبح الفن – الكتابة- الواقع الحقيقي. لا واقع آخر غير هذه النصوص ولا جملة مفيدة واحدة في كتاب الموت الذي تبرع وكالات الانباء في قراءة سطوره كل لحظة كخبر عاجل من غزة إلا تلك الجملة الصغيرة الحادة المفجعة ولكن المليئة ببهجة البقاء التي تخطها هذه النصوص.

لا شيء يدل على جوهر الحياة وغناها اكثر من تلك الحفلة المتواضعة التي يقيمها أحمد يعقوب لطفلته فيما شقته في أبراج المقوسي في ضاحية النصر بمدينة غزة تترنح من ثمالة القصف في كل ناحية. لحظات الفرح تلك إدانة لبحث الطائرات المحموم عن الموت.

"حان وقت الاحتفال مع خمسة أشخاص، (نحن العائلة..) وفي وقت التصوير، انفجر صاروخ بالقرب من المبنى. (في الصورة يبدو طفلي الأصغر وهو خائف جدا). وبدلا من غناء عيد ميلاد سعيد لك يا ليندا، بدأنا بغناء أغنية تيمون ووبومبا stand by me المعروفة والمحبوبة لأطفالي " هكذا تحتفل العائلة بالحياة رغم وقع الموت.

ولا أكثر ألماً من بروفة النجاة التي تقوم بها رنا الشابة التي لم تبلغ السابعة عشرة في حال باغتهم الصاروخ. بروفة الكاتبة الشابة على الإمساك بكل تفاصليها فقد يكون امامها ٣٩ ثانية لأن تنجو عليها أن تتأكد من أنها تستطيع فعل ذلك. لأنها لا تريد ان يباغتها الشيطان وهي ضعيفة في مناجاة مؤلمة.

" أتمنى ألا يرى صديقي الذي يرقد شهيداً في قلبي، وألا يرى البسمة التي ستذكرني فيما بعد بالبكاء، أتمنى ألا يراني وأنا أبكي جثثاً وموتى، أتمنى ألا يراني عاجزة عن حصر ما أريد في حقيبة واحدة وأنسى أن أخبئ ما تبقى في روحي في فضاء كبير".

إنه ذات الاشتياق للحياة بعاديتها ونعومتها وانسيابيتها التي تفتقدها منال مقداد وهي تشتاق لصوت بائع الحلب بترنيمته الشهيرة حين يدعو الأطفال للشراء منه. منال بعالمها الفطري تكتب حياتها كما هي بلا تأمل ولا تفكير فالحياة تباغتها كما الموت، لكنها لا تخطب ودها بل تلوح لها من بعيد حيث تلتقط أنفاسها الأخيرة. وتناجي منال الله قائلة

[يا الله... هل تصلُكَ رسائلِي؟ هل تسمعُ صوتَ بكائي المختنق؟ هل تدركَ ضعفيَ وقلّةَ حيلتي؟ يا الله لماذا لا تصدّقني حين أتوسّلُ إليك: لا أريد الحرب ولا أريد لحياتيَ أن تنتهي؟!]

تلك الحياة التي ستكون رغم كل شيء تشعر بها هند جودة حيث ستجتاز غزة عقبة الموت. تقول هند لأصدقائها

"أشعر يا أصدقائي أننا سنعيش وسنملأ غزة التي بقروا بطنها شعرا وموسيقى وحياة.

ستقشر غزة الحزن عن جلدها يوما فآخر"

لذا فهي تطلب من قلبها أن يغني لها

"غن لي

دع صوتك يعبر إلى حلمي

يجمع ابتسامات الصغار قبل انفجارهم الأخير

ليكملوا ألعابهم والحكايا."

أما حين تعيش في علبة الحرب ويصير عليك عصياً أن تفلت من تروس خلاطها فالكتابة تصير حبالاً تتسلقها لتخرج من القاع كما يود ان يفعل وسام عويضة

"لا حبال لأتسلقها، أنا في قاع علبة الحرب، خلاط الدم الذي يقتل كل ما تبقى من إنسانيةٍ وعقلٍ، الحرب خارج إطار المعقول".

ويسجل سليم النفار بعجالة الواقف في وجه الريح تريد أن تقتلعه شذرات من يومياته في الحرب حيث نرى جاره محمد الذي يندفع لانقاذ خطيبته هيفاء في حي الشجاعية فتباغته الطائرة تسلبه الحياة. يخرج النفار بعد سبعة وثلاثين يوماً مضت سلحفاة ودهراً فيجد ان "رائحة الموت تفوح في كل الارض... وركام البيوت المدمرة لوحات سوريالية في متحف النازية المعاصرة ,فهذه امرأة ذاهلة تحدث نفسها عن فقد عزيز ,وتلك شاردة تطارد ظل حبيبها الغارق بدمه, وتسأل نفسها: هل يعود؟؟ واطفال يفتشون بين الركام عن مقتنياتهم الشخصية.. عن العابهم, عن ذكرياتهم تحت الدمار, ولكنهم يبتسمون".

****

جل هذه النصوص هي مناجاة شخصية كما يمكن أن نتبين من متونها، وهي كتبت في لحظات كان يمكن لها أن لا تكتمل، كما لم يكن كاتبوها فيما سيفعلون بها بقدر حاجتهم لأن يمارسوا طقس الحياة عبرها. لذا فإن بعضها تميز بالتدفق والانسياب السردي والاندياح في أفق مفتوح ومتتابع فيما خرج بعض آخر على شكل عبارات قصيرة وفقرات مبتورة. كما ان بعضها ظهر شعراً وكثيرها نثراً واختلط الجنسان في دروب عدة حيث أن هاجس الكتابة أكثر الحاحاً من شروطها.

كان الكثيرون يكتبون على صفحاتهم على الفيس بوك يسجلون ما يدور حولهم او يصفون مشاعرهم بكثير من الاجتهاد لذا فإن العفوية عالية في الكثير من هذه النصوص والتشارك والتخاطب يتوفران في بعضها حيث القارئ الافتراضي دون إشعار للكاتب يقوم بالتفاعل مع هذه الكتابة. كانت الكتابة التي انتجها هذا الواقع في الكثير منها اكثر قسوة من الواقع ولم تكن هذه الكتابة إلا إيغالاً في دهاليز هذا الألم الذي خلفه لذا فهي، أي هذه النصوص، تحكي وتسرد قصصاً عن الحياة وعن الموت، عن الحب وعن الكراهية، وهي تروي ما رأي وما سمع وما خبر وما لمس كتابها، دون أن تفسره ودون ان تشرحه. حتى في لحظات التأمل العميقة التي تنكشف في سهول هذه النصوص فإن ثيمة الموت والحياة تظل مهيمنة لارتباطها بمدى وعي الكاتب او الكاتبة بوجوده او عدمه.

وإذا كان لهذا الملف من غاية فهو أن يكون شاهداً آخر على الجرف الساقط على غزة من فوهة البركان.